جورج طربيه شاعراً وجوديَّاً

«جورج أنطونيوس طربيه شاعراً وجودياً بأقلام عارفيه»، هذا ما نقرأه عنواناً لثلاثة مجلَّدات أصدرها جورج طربيه نفسه ضمَّت ما كتبه عارفوه عنه. هذا يعني أنَّه يتبنَّى هذا الوصف/الحكم على شعره. فماذا يعني أن يكون الشاعر شاعراً وجودياً؟

الشاعر الوجودي هو الذي يرى إلى الوجود الإنساني، ويحاول الإجابة عن أسئلته، ومنها: ما حقيقة هذا الوجود؟ ما جدواه؟ ما مآله؟ ما مصدره؟... قد لا يصل إلى إجابات توفِّر له اليقين، كما يقول أبو العلاء المعرِّي:

أمَّا اليقين، فلا يقين، وإنَّما أقصى اجتهادي أن أظنَّ وأحدسا

وقد يصل، وقد يبقى بين بين، فما هي حال طربيه بين هذه الأحوال؟

يقول أنسي الحاج: كأنَّ جورج طربيه «أحد أشخاص ألبير كامو، يعرف أنَّ هذا الوجود عبثي، ويريد، بالرغم من ذلك، أن يتحمَّله، بل أن يعطيه معنى، ويصيِّره جميلاً» (النهار، ٤٣٠/ ١١/ ١٩٧٠).

يثير هذا القول سؤالين: أوَّلهما هل صحيح أنَّ طربيه يعرف أنَّ الوجود عبثي؟ وثانيهما ما هو المعنى الذي يعطيه للجود كي يتمكَّن من تحمّله من نحوٍ أوَّل، وليجعله جميلاً من نحوٍ ثان؟

للإجابة عن هذين السؤالين، نعود إلى طربيه نفسه، فنصغي إليه، وهو يقول: إنَّ صراعه الوجودي كان بين الإلحاد والإيمان، وقد انتهى هذا الصراع، كما يضيف، إلى مصلحة الإيمان بشكل حاسم لدرجة التماهي بشخص السيد المسيح في أكثر من موقع... (جورج طربيه شاعراً وجودياً بأقلام عارفيه، بيروت، إصدار خاص، ط. ١، ٢٠٠١، ١/ ٥).

عاش طربيه صراعاً وجودياً، وقد جعله عيش هذه التجربة «أمير الحزن» وليس حزيناً فحسب، وجعل لديه من الأحزان «مؤونة ألف عام»، فنقرأ ما يدل على ذلك من مجموعته الشعرية: «زائرة الليل الليلكي»:

ـ «عندي من الأحزان، يا نفسي، مؤونة ألف عام/ حُزم من الأحزان، أهرائي تفيض على الدوام/ إني أمير الحزن.../ الحزن توَّج رأسي الملكي، زيَّن شعري الفضِّي...».

لكن هذا الصراع انتهى إلى أن يتماهى الشاعر مع السيد المسيح عليه السلام، ويتكرَّر النصُّ على هذا التماهي، في الشعر، فنقرأ في مجموعة «شهادات أمام محكمة القرن» الشعرية قوله:

«يسوع ربِّي...، وأنا/ طفلان نهوى بعضنا/ يصير مثلي، مثله أصير،...» (ص. ١٨ و؟؟).

يصير الشاعر مثل يسوع، فيدحرج الشَّك، ويخرج مخلِّصاً، كما يقول في مجموعة «زارة الليل الليلكي»:

«ها أنا عائد إلى الرَّحم الكبير/ أفضُّ الوجود جديداً/ نافضاً عن فمي غبار الأساطير/ وما حبكته القرون المديدة/ عائد للجذور عار تماماً/ من الأمس، من ذبذبات الحضارة/ ... وأبعث التاريخ من موائد الرماد».

وهو إذ يفضُّ الوجود فضَّاً جديداً، يبدو كأنَّه المخلِّص، طفل القلوب المنتظر، ليبعث التاريخ من مواقد الرَّماد.

وإذ يتبنَّى هذا، نلتقط الإجابة عن السؤال الثاني الذي طرحناه آنفاً، وهو: ما هو المعنى الذي يعطيه للوجود كي يتمكَّن من تحمُّله من نحوٍ أول، وليجعله جميلاً من نحوٍ ثانٍ؟

يتمثَّل هذا المعنى في «الأنا»، أنا الشاعر، المنبعثة من الرَّحم الكبير لتفضَّ الوجود، وتبعث التاريخ من مواقد الرَّماد.

تبدو هذه «الأنا» كأنَّها المحور الأساسي في شعر طربيه، فلو قرأنا، على سبيل المثال، قصيدة غزلية، من مجموعة «زائرة الليل الليلكي» هي «قالت

تعاتبني» لرأيناه يعدُّ أجساد الحسان دنانه، لكنه لا يستجيب لإغراء جميلة فاتنة، وإنما يتجاهلها ليثير ريحها، ويقول لها: ثوري، اعصفي، جُنِّي، فتلكم منيتي كنت الضحية فيكِ صرتُ الجاني.

ثوري، أحبُّ جمالك متمرِّداً وقوامك الفتَّان، وهو يعاني

نلحظ هذه الرغبة في مجموعة «عاشقة البحور السبع (ص. ٥٦)، يقول: «أن تراني كالطود بالقرب منها، وتريني جمالها في سخاء/ منتهى المشتهى لديَّ من الأنثى».

تذكِّر هذه الرغبة في حبِّ معاناة من تحبُّه بقول لجميل بن معمر، قاله قبل أن يغدو جميل بثينة، وهو:

ومن لذَّة الدنيا، وإن كنت ظالماً عناقك مظلوماً، وأنت تعاتبه

الشاعر طربيه، لا يعانق ويعاتب وإن كان ظالماً كما جميل، ولا يستجيب لمغامرة كما عمر بن أبي ربيعة، وإنَّما يريد للحبيبة أن تثور وتعصف وتجن وتعاني،، هذه هي منيته، وذلك لأنَّه وفيٌّ لزوجة تهواه، هو وفيٌّ لها لأنَّها تهواه، يقول:

ما كنت أعبر عن هواك مكابراً لولا الوفاء لزوجة تهواني

إنَّه، كما يبدو، قمر، أو كوكب فريد بين شمسين تتجاذبانه: أولاهما فاتنة تهواه، وتغريه، وتجهد في أن تغويه، وثانيتهما زوجة تهواه وتنير دجاه، وهو يَعْبُر عن هواه للأولى، ويرسل دروساً في الوفاء والرجولة «بنبرة نبي»، كما يقول في موضع آخر من هذه المجموعة الشعرية (ص. ٦٧)، من هذه الدروس أن تنهى العزَّة عن احتساء أجساد النساء/ دنانه..

فهل من «أنا» تفوق هذه «الأنا» رفعةً وعزَّة وتعالياً!؟ فهي على الرغم من اختزانها أجساد الفاتنات دناناً تشتهيها...، فتبقى ظمأى إلى...، إلى ذلك الكوكب الفريد...، الذي يتماهى بالسيِّد المسيح عليه السلام، والذي يتحدَّث بنبرة نبيٍّ، يرسل الدروس ليغدو هذا الوجود محتملاً وجميلاً، بعد أن يفضَّه فضاً جديداً.

قد يبدو، ونحن نرى هاتين الخصيصتين: الحزن، وتوهج الأنا الناطقة برؤية نبي، والساعية إلى أداء رسالة المخلِّص، قد يبدو لنا أنَّ طربيه شاعر رومنسي، لكن التأمُّل يفيد أنَّه شاعر مختلف، فحزنه وليد صراع وجودي ينتهي إلى فرح المخلِّص بأداء رسالته، وأناه هي هذا المخلِّص الذي يخرج من دجى الوجود إلى نور الدروس النبويَّة...

وهو، إذ يعود إلى الطبيعة، يسبغ عليها أوصافاً تداولها الأسلاف، مثل «مغازل الثلوج» و«أرجوحة القمر» و«صنوبرات العشق والسهر» لكن عودته ليست عودة إلى مطلق طبيعة، فضلاً عن أنها ليست هرباً، إنها في الحقيقة عودة إلى الطبيعة الولَّادة، بوصفها رمزاً للخصب الآتي بالخلاص.

تؤدَّى هذه الرؤية بلغة شعرية راود منشدها القوافي زمناً أثمر عشر مجموعات شعرية، إضافة إلى ثقافة عامَّة ومتخصِّصة جعلته صاحباً لنوابغ الشعر العربي الإنساني، ويمتلك مفهوماً للشعر يتمثل في أنه عصارة الروح، والمهم أن يكون النصُّ شعراً، وليكتب بأي شكل تمليه تجربة الشاعر، وهو إذ يمتلك هذا المفهوم يعارض مفهومين آخرين هما مفهوما فئتين من أدعياء الشعر: أولاهما فئة الألفاظيين التي حجزت الشعر في الإطار الخليلي، وثانيتهما فئة الألغازيين التي تنكرت للخليل، واستوردت بعض المفاهيم الغربيَّة رافعة علم الانفصال بين الشعر وأبعاده التاريخيَّة، باترة الجذع عن جذوره الضاربة عميقاً في تربته، فالشعر، كما يقول طربيه، هو ما يصل به أصحابه إلى المرقاة العليا في السلَّم النوراني: مرقاة الأنبياء، فقمم الشعراء، كما يرى، هم الذين يرون ما لا يراه الآخرون، ويسمعون ما يسمعونه، ويحسُّون ما لا يحسُّونه، فيكونون بذلك نسور/النور وماسحي الغبار عن عينيّ الإنسانية. هذا الشعر، في معناه العميق، يمكن أن يكون منظوماً مقفَّى أو نثراً مصفَّى.

تعيدنا مرقاة الأنبياء التي يصل إليها الشعراء إلى ما تبيَّناه آنفاً من تماهٍ مع السيد المسيح، وهو تماهٍ جعل له دوراً هو فضُّ الوجود وبعث التاريخ من الرَّماد.